مجلة أنثروبولوجية الأديان المجلد 17 العدد 02 السنة 2021/06/05

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

التربية الصوفية في الجزائر وبعدها الوظيفي التربوي بين الأصالة التاريخية والصراع الإيديولوجي

Sufi education in algeria and its functional dimension between historical authenticityand ideolgical struggle

سحانين حسين*[1]

[1]جامعة د. مولاي الطاهر سعيدة ،مخبر تطوير للبحث في العلوم الاجتماعية والإنسانية

inspedhocine@gmail.com

أ.حفيان محمد[2]

[2]جامعة د. مولاي الطاهر سعيدة

Hafiane2010@yahoo.fr

تاريخ الارسال: 2020/09/05 تاريخ القبول: 2020/12/14

ملخص:

قمنا في هذه الدراسة الاستقرائية النقدية والاستشرافية، بإبراز إشكالية التأثير الإيديولوجي والصراع الفكري في حضور التراث الصوفي عموما والجزائري خصوصا، بجميع تمثلاته وتجلياته في بناء المنظومات التربوية والمناهج الدراسية في الجزائر منذ الاستقلال إلى يومنا هذا ، على جميع المستويات المعرفية والتاريخية، كشخصيات ،أو نصوص ، وحتى من جانب المصطلحات والمفاهيم ، في المشهد التربوي في بلادنا ، وإبراز أهم انعكاساته بين امتدادية أصالته فيه و تيارات القطيعة الإيديولوجية،ومدى تأثره وتأثيره إيجابا وسلبا على القيم الأخلاقية وتثبيت المرجعية الدينية الوطنية، والحرص على استمرارية ثوابت الأمة وترسيخهاوالمساهمة في الحفاظ على الهوية الوطنية وثقافة الحب والسلام واللامغالاة. وقد ختمنا دراستنا بأهم التوصيات لتأصيل الحضور الصوفي وطرق تفعيله نظريا وممارستيا وتربويا في منظومتنا التربوية وعلى مستويات مناهجنا الدراسية المعدلة ، بغية استشرافها مستقبليا وإيلائها الاهمية الضرورية.

كلمات مفتاحية: التربية الصوفية،المنظومة التربوية،المناهج الجديدة، الأصالة، الإيديولوجيا

Abstract:

In this critical and forward-looking study, we highlighted the problem of ideological influence and intellectual conflict in the presence of the Sufi heritage in general and the Algerian in particular, with all its representations and manifestations in building educational systems and curricula in Algeria from

* **المؤلف المرسل** : سحانين حسين، **الايميل**: inspedhocine@gmail.com

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

independence to the present day, on all levels of knowledge and history, as characters, or texts, Even in terms of terms and concepts, in the educational scene in our country, highlighting its most important reflections between the extension of its originality in it and the currents of ideological estrangement, the extent of its influence and its positive and negative influence on moral values, the establishment of the national religious reference, the concern for the continuity and consolidation of the nation's constants and the contribution to preserving the national identity and the culture of love Peace and non-rule.

Keywords: sufieducational; Algerian curriculum; new curricula; Originality; reality

مقدمة:

حاولت الجزائر مند استقلالها بناء سياسة تربوية واعية وهادفة تخدم مصلحة الشعب والأمة ، وقد تخللت هده السياسة التربوية تغييراتَ كثيرة وتعديلات كبيرة ،باعتبار أن نظام التربية والتعليم في أي دولة هو خلاصة مرجعياته الدينية والفلسفية والحضارية والثقافية، تؤصل له الدولة استنادا لخطاباتها السياسية وتوجهاتها الفكرية بغية خلق الدينامية اللازمة لحركيتهواستمراريته،داخليا وخارجيا، ولبناء النموذج التربوي معرفيا وسلوكيا وقيميا.

ولقد شهدنا في الفترة الأخيرة ،خاصة منذ 2003 حركة دؤوبة في محاولة إصلاح منظومتنا التربوية، ركزت خصوصا على مراجعة المناهج الدراسية وتحديثها وتجديدها،شكلا ومضمونا، من حيث التصور والبناء وتجديد كل الكتب الدراسية والوثائق الرسمية ،والانتقال من الكفاءة إلى المقاربة بالأهداف إلى المقاربة بالكفاءات ،ثم إلى الكفاءات البنائية الاجتماعية،كاختيار فلسفي بيداغوجي جديد ،للمراهنة على تأهيل مواردنا البشرية على الاندماج في المحيط المحلي والوطني والعالمي،والانتقال بمدرستنا إلى الانفتاح على القيم الثقافية والحضارية الوطنية والكونية ومواكبة التدفق المتسارع للمعرفة وتوظيف تكنولوجيا الإعلام والاتصال، وصولا إلى تجاوز المعرفة وتلقين الموارد للمتعلم إلى تجنيدها واستغلالها في حل وضعيات مشكلة جديدة، والانتقال من فلسفة التلقين إلى بيداغوجيا البناء،كما ركز المشروع التربوي الجزائري على الفلسفة التربوية التي تعزز المعارف والقيم، وتمنحها توجهها الإنساني الكوني في علاقاتها بالتحولات الكبرى العالمية، وفي سياقها الإصلاحي للمنظومة التربوية ، تراهن على ترسيخ الهوية الجزائرية الحضارية والثقافية والأخلاقية والروحية وتفعيل قيم المواطنة لتعزيز الوحدة الوطنية.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

الإشكالية:

ما مدى حضور التراث الصوفي في المشهد التربوي الجزائري؟وهل يتم إدراج المنهج التربوي الصوفي في بناء المشاريع والمناهج التربوية الجزائرية وتكريسه في الجوانب المعرفية والقيمية بكافة أبعاده السيكولوجية والفكرية في الكتب التعلمية والمواثيق ؟ هل هو خيار مدروس وممنهج بأفق ومنطلقات علمية موضوعية، أم هو تغييب مقصود بخلفيات إيديولوجية فكرية تحزبية؟ وكيف يؤثر هدا الحضور أو الغياب ،إيجابا و سلبا على تأصيل المرجعية الدينية وعلى الهوية الوطنية في بلادنا؟

أولا:التربية الصوفية والإيديولوجية:

1 -تاريخ التصوف في الجزائر

لا يمكن تاريخيا تحديد البدايات الأولى والأكيدة للتصوف ببلاد المغرب الإسلامي عموما ،والجزائر خاصة،باعتبار أن الأصول أسرار و لطبيعة التصوف وتقاطعاته وامتداداته التاريخية وحتى الجغرافية لأغلب مشايخ التصوف، لكن يرى أغلب الباحثين والمتخصصين أن التصوف في صوره الزهدية قديم قدم الفتوحات الإسلامية، منذ القرنين الثاني والثالث الهجري، باعتباره ظاهرة عامة وطبيعية وروحية لديننا الحنيف، أما بمفهومه الدقيق والمصطلح عليه حديثا كعلم مستقل له أصوله وفروعه وتصوراته الفكرية والخطابية والمنهجية،وتأصله كمظهر من المظاهر الفكرية بمصطلحاته أو أساليبه وطرقه في السلوك والتربية ،فقد ظهر بالمشرق الإسلامي وانتقلت أفكاره بعد ذلك لبلدان المغرب العربي مع قوافل الحجيج والتجارة وانتشار دوائر التأليف ورحلات طلب العلم.كما مرّ التصوف بأدوار تاريخية مختلفة ومتنوعة ،منذ نشأته الزهدية ،مرورا بمرحلة النضج والتربية وإنتاج المصطلح والتدوين،ووصولا لمرحلة تبلور الطرق الصوفية،والجزائر جزء لا يتجزأ من هذا العالم الإسلامي والمغربي،كان له دور بارز في إثراء هذا التراث الصوفي الإنساني ف" لا يختلف اثنان حول الدور الهام الذي قامت به الجزائر في إثراء التجربة الصوفية في العالم الإسلامي ومساهماتها في هذا الميدان لا تقل عن مساهمات كبريات الدول الإسلامية مثل إيران ،تركيا،مصر،المغرب"(عبد المنعم القاسمي الحسيني،2007، ص.8)،فالحضور الصوفي الجزائري ظاهر سواء من خلال أثار العلماء الربانيين ومؤلفاتهم الزاخرة،أو من خلال الشيوخ والشخصيات الصوفية البارزة التي جالت مشارق الأرض ومغاربها،وانتشار طرقهم ورباطاتهموزواياهم،وصولا إلى إفريقيا والسودان والسنغال"فإذا اقتصرنا على الجزائر وجدنا عددا من المرابطين وأهل الزهد ورجال التصوف قد كثروا كثرة

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

تلفت النظر قبل مجيء العثمانيين أيضا،فعبد الرحمن الثعالبي ومحمد الهواري وإبراهيم التازي وأحمد بن عبد الله ومحمد بن يوسف السنوسي،كانوا من ألمع أولئك الرجال،وهناك آخرون عاصروا بداية العهد العثماني ولكنهم قد تكونوا قبله مثل أحمد بن يوسف المليانى ومحمد أفغول ومحمد بن شعاعة ومحمد التواتي البجائي"(أبو القاسم سعد الله، 1998، ص.459).

فأسّس هؤلاء وغيرهم من الشيوخ والعلماء الصوفيين لهذا المنهج في الجزائر وقاموا بنشره ،تنظيرا وممارسة،علما وعملا،وكانوا أسوة وأنموذجا للعلماء الربانيين العاملين في التزكية والتربية الروحية ،ومثالا في الأخلاق الحسنة ،فاستطاعوا أن يمثلوا هذا المنهج أحسن تمثيل وأن يستميلوا إليه الناس على اختلاف طبقاتهم ،حاكمة ومحكومة،خاصة الأوساط الشعبية ،فجعلوا من الطرق الصوفية مؤسسات منهاج في التربية والسلوك،وكثر أتباعهم وتزايد عددهم وتعددت طرقهم وانتشرت زواياهم في كامل التراب الوطني"باستثناء الطريقتين القادرية والشاذلية اللتين كانتا موجودتين قبل قدوم العثمانيين إلى الجزائر ،فإن الطرق الأخرى أخذت بعد مجيئهم في التعدد والتكاثر حتى بلغ عددهم 23 طريقة،تضم295179من المريدين والإخوان ويقوم بتسييرها والإشراف عليها 57شيخا بمساعدة حوالي 6000من مقدم ووكيل وعامل،تملك هذه الطرق 349 زاوية"(عبد الرحمن الجيلالي،1995، ص.249).

فتمكنت هذه الطرق على اختلاف مشايخها ومشاربها وأصولها من تثبيت دعاماتها وتجذير روابطها في الجزائر ،وأصبحت قوة دينية وسلطة اجتماعية،أثرت في حركية المجتمع على مختلف مستوياته وأبعاده ،فكان أغلب الجزائريين – إن لم نقل كلهم- أعضاء في إحدى الطرق الصوفية،أو مريدين في زواياهم أو لهم علاقة بهم"من الممكن جدا الإقرار بالمبدأ القائل بأن كل الجزائريين كانوا ابتداء من سن معين ،قبل وخلال المرحلة الاستعمارية منخرطين في طريقة أو أخرى أو في عدة طرق في نفس الوقت"(بوعتو بشير،2013، ص.380)،فأصبح من مميزات العصر العثماني وأثناء عهد الاحتلال الفرنسي ،انتشار الطرق الصوفية وكثرة الزوايا المخصصة لها، وأضحت الزوايا مؤسسات مهيكلة ومنظمة ،لها أدوارها وأبعادها ووظائفها التربوية والتعليمية والاجتماعية والدينية والثقافية ، مما يؤكد تاريخيا على حضور التراث الصوفي في الجزائر عبر عصوره المختلفة ،وهذا ما يؤكده الأستاذ أحمد توفيق المدني " ما امتاز به هذا العصر اشتداد نفوذ المرابطين وانتشار أمر الولاية والصلاح والزهد والتصوف،فأخذ الناس يقبلون على الطرق الصوفية جموعا"(أحمد توفيق المدني،ص.90).

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

فالحقيقة الثابتة تاريخيا وحضاريا ،حضور التراث الصوفي بمظاهره المختلفة في التشكيل البنيوي للثقافة الفكرية للمجتمع الجزائري ،منذ نشأته لوقتنا الحاضر، وعبر كل المراحل والفترات التاريخية التي مرت بها بلادنا،قوةوضعفا،امتداداوانحسارا،باختلاف العومل والأسباب الداخلية والخارجية .

2 -التربية الصوفية:

إن رسالة الصوفية رسالة سرمدية أزلية ،متأصلة في الطبيعة الإنسانية التي تنشد "الكمال الإنساني"،فالمنهج التربوي الصوفي لا تحده حدود وجودية أو معرفية ، ولا تاريخية أو جغرافية،فهو حقيقة إنسانية عالمية ،لا تعترف بلون أو جنس أو عرق، تبحث عن الانعتاق الروحي والتحرر من الحس المادي،وصولا للمطلق اللاّ متناهي، السعي الدائم والسامي للتجرد من كل المعيقات والحواجز ،تحقيقا لأنموذج الإنسان الكامل، والسبيل الوحيد لبلوغه،هو ممارسة الرياضات الروحية والتزكية النفسية من خلال المنهج التربوي الصوفي" كذلك كان دور التصوف عميقا في حقل التربية، ذلك لأن مهمة التصوف الأساسية إنما هي تهذيب الشخصية البشرية من جميع جوانبها حتى تبلغ الغاية من تحقيق إمكاناتها واستكمال كفاءاتها"(سيد حسين نصر،1975، ص.23) ، فتحقيق مبدأ الخلافة الإنساني على وجه هده البسيطة، يكمن في أخلقة الإنسان وتهذيب شخصيته وإصلاحها،والترقي بها والتدرج في المراتب الروحية، من خلال الرياضات و المجاهدات وسلوك مقامات التخلية والتحلية، وأي منهج ينحرف عن مسار وعن سلوك الطريق الصوفي ما يلبث أن يتصدع ويتلاشى ويفشل في استكمال وتحقيق الذات الإنسانية لكينونتها وكفاءاتها "فمن أين جاء هذا المفهوم الغريب الذي يعطل قدرات الإنسان ويقهر إبداعه ويحبس كوامنه عن التفجر ويحجبه عن حيوية الفعل الذي تشتق الحياة اسمها منه ويضع كل ذلك في تناقض مع الله؟ يرجع الأمر للطريقة المنحرفة التي فهم بها القرآن وفهمت بها التربية الصوفية"(أبو القاسم حاج محمد،2004، ص.286) فالفهم الحقيقي والموضوعي للتجربة الصوفية والوعي بأهمية هذه التربية ،الواجب تفعيلها في مجتمعاتنا ،سيحرر قدرات الفرد ويفجر كوامنه وطاقاته الإبداعية، ويفعّلهاداخل مجتمعه كعضو فعال ومفيد فيه،ويبرز نظرته للكون والإنسان والطبيعة،وهذا ما عجزت عنه مشاريعنا التربوية و مناهجنا الدراسية " إن التعليم السائد في الوطن العربي اليوم هو إما تعليم تقاني يصنع عقولا قانونية دغمائية،وإما تعليم ميتولوجي تلقيني يصنع عقولا راكدة أسطورية، والقاسم المشترك بين هذين النوعين هو غياب السؤال النقدي لماذا وكيف"(محمد عابد الجابري،1999، ص.64)،وهو هنا لايستثني التربية الصوفية من هذا الركود والجمود

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

التربوي التعليمي،بل هي جزء من هذا التراكم المعرفي العقيم ،الذي يؤثر سلبا على توليد إنتاج ناقد،لكن على الأقل المنهج الصوفي يحاول التأسيس لهذا النموذج، من خلال التحرير النفسي ورفع الضغوطات السلبية ،التي قد تقيّد انبعاث هذه الإبداعات الدفينة،فمنتجات حقول التربية هياكل دون روح،عقول مستهلكة،لا منتجة،عقول لا عقلانية،فقيمة المشاريع الفكرية التربوية ،تكمن أساسا فيما تحققه من وعي وقيم ويقظة فحركة وتنمية"وهكذا فإن كانت التنمية هي:العلم حين يصبح ثقافة ،فإن التخلف يكون هو العلم حين ينفصل عن الثقافة أو هو الثقافة حين لا يؤسسها العلم"(محمد عابد الجابري،1999، ص.103)،فمن أسباب فشلنا تربويا هو انفصالنا عن تراثنا الأخلاقي وقيم مجتمعنا وثقافتنا،وغيابه كوعي وممارسة،فالتربية الصوفية فلسفة حياة تبغي التأسيس الأخلاقي لأي عمل **ثانيا: الإيديولوجية وتأثيرها على الفكر التربويالصوفي:**

لقد استطاعت الطرق الصوفية أن تؤصل لمنهجها وأفكارها،وأن تتجاوز تجربتها الذاتية من منطلق الكينونة المنغلقة،وإنّيتها الخاصة، إلى الحضرة الشعبية والطبقات الاجتماعية على اختلاف مستوياتها وتنوعها، وتمكنت من استيعاب أعداد هائلة في زواياها ورباطاتها" ومن ذلك النشاط الاجتماعي لجماعات الصوفية واسعة الانتشار،يبدو أن نظرة جديدة قد تطورت ،حولت الصوفية من كونها دين الخاصة إلى حركة جماهيرية طالت جميع الطبقات الشعبية"(أنّا ماري شيمل،2004، ص.262) ،لكن مالبث هذا الخطاب الصوفي الجزائري أن تراجع نشاطه وانحسر تفاعله،داخل مجتمعنا،لأسباب عديدة ومتنوعة،موضوعية أحيانا وغير موضوعية أحايين كثيرة،واعتبار التصوف ظاهرة دخيلة على ثقافتنا وبيئتنا،وأنّه ظاهرة احتفالية ،شركية،بدعية وخرافية ،أفسدت المجتمع بفكر "الدراويش" و"المجاديب"، هذه الصورة التي ألصقت إعلاميا وسينمائيا كنموذج للتصوف،واتخذت من انزلاقات بعض التنظيمات الطرقية مبررا للطعن فيه والدعوة للانصراف عنه،ليس ممارسة فحسب،بل دراسة وبحثا كذلك" إنّ مصطلح "صوفيمع كل مشتقاته ،قد تم ابتذاله على نطاق واسع في الثقافة التسويقية الشعبية المفروضة على الناس عبر النزعة الاستهلاكية العالمية المعاصرة، فكثيرا ما تم اختزال وابتذال هذا المصطلح في كونه عبارة عن كل ما هو شاذ وغريب وغير منطقي..وأحيانا يستخدم مصطلح" صوفي" للتلميح إلى كل نوع من الظواهر الغيبية الغريبة وغير الطبيعية"(جوزيبي سكاتولين،2013، ص.185)وممّا زاد من بعد الهوة بين التصوف والمجتمع عموما ، التوجه العالمي والدعوة إلى العصرنة والحداثة ، والدعوة إلى التوجه العقلاني، وتصنيف التجربة الصوفية

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

كتجربة لا عقلية،وغير قابلة للتأسيس عليها لصناعة الحداثة وإحداث التغيير والتجديد،بل اتفقت كثير من هذه التيارات الحداثية على نبذها في خطط المشاريع النهضوية للجزائر، واعتبارها تفتقر لآليات فهم الواقع وإعطاء الحلول لمشاكل المجتمع الجزائري الحديثة والمعاصرة، ونلمس هذا التوجه الإيديولوجي بشدة في فترات متقطعة من تاريخنا الوطني، خاصة في الفترة الأخيرة للمستعمر الفرنسي وبعد الاستقلال مباشرة، وتواصل هذا الإقصاء بين المد والجزر ليومنا هذا ، حسب التوجهات الفكرية والسياسية للدولة الجزائرية،ففي افتتاح الملتقى الواحد والعشرين للفكر الإسلامي ،يشير المرحوم باقي بوعلام- وزير الشؤون الدينية آنذاك- بعد حديثه عن رواج الكثير من الفهوم الضعيفة والأحكام الخاطئة،قال:"ولعل أخطرها تلك التي تنفي عن جهل أو قصد، أي فضل يذكر للطرق الصوفية في حياة الأمة وتطورها ،بل لاترى فيها عموما إلا سببا من أسباب التخلف والجمود، ولايخفى عليكم ما في هذه الأحكام المطلقة من جناية على الحقيقة وعلى التاريخ"(صلاح مؤيد العقبي،2009، ص.19)،وكل هذه الحملات التشهيرية التسويقية،هدفها تشويه صورة التصوف والطرق الصوفية وأعلامها والتجاهل الكلي لتراثهم وتاريخهم وكل دور لهم في تاريخ الجزائر،بل وصل الأمر إلى وصمهم بالخنوع والخشوع والعمالة والخيانة للشعب والوطن ،أيام الاستعمار الفرنسي،وأخذ الكل بذنب الواحد،فهذا سعيد عبد العظيم في حديثه عن الوجه الآخر للصوفية ،يتهمهم بالجوسسة والخيانة بعنوان" المتعاونون مع فرنسا في الجزائر" فيقول:" ويضاف إليهم بعض أصحاب الطرق الصوفية الذين أشاعوا الخرافات والبدع،وبنوا روح الانهزامية والسلبية في النضال فاستخدمهم الاستعمار كجواسيس"(سعيد عبد العظيم،2007،ص.170).

فمن المؤسف حقا أن نختزل تاريخا بأكمله وتراثا يمثل أزهى فترا ت الجزائر التاريخية سلما وأمنا وعطاء وعلما،في أشباه بعض الشيوخ والمدّعين الذين كانوا ولايزالون يغلّبون أهواءهم وأغراضهم الدنيوية على مصالح الأمة،وأن نحمّل أوزارهم لكل الطرق الصوفية ومنابعها المتجذرة في تاريخ الجزائر وتاريخ المقاومة الوطنية، خاصة إذا ألبسناها لبوسا دينيا"ثم تزعم للشعب- أي الطرق الصوفية- أنّ سلطة الدولة الاستعمارية من سلطة الله لا تقاوم، وأنّ التسليم لها ،تسليم لله ،والرضى بأحكامها رضى بقدر الله .. مثل هذه الأفكار كانت رائجة يحتضنها (مشائخ) ويروجون لها، تحميهم هذه السلطة الاستعمارية المنتفع الأكبر من رواجها،وكان لها الدور الكبير في تنويم الأمّة واستبلاه البسطاء"(احمد حماني،1984،ص.53).

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

فكل تفسير للتاريخ من منطلقات إيديولوجية وديماغوجية ضيقة وعقيمة وبعيدة عن سياقاتها الموضوعية،لا تخدم تاريخنا ولا ثقافتنا ولا وحدتنا ،بقدر ما تبعدنا عن النظرة الحقيقية والموضوعية للأحداث والحقائق و تزيد من عنصر الكره والتشتت والتفرقة" ولقد انتشرت إشاعة بعد الاستقلال أن الإخوانيات تعاونت مع سلطات الاحتلال،لكن هذه الفكرة لا تصمد أمام التحليل التاريخي ولا أمام تاريخ كل إخوانية ولا إلى التحاليل المحلية والجهوية الخاصة بإنشائها"(رأس مال عبد العزيز،2011، ص.38)،فلا يمكن لعاقل أن ينكر دور الطرق الصوفية وأثر المرابطين وشيوخ الزوايا ورجالها ومريديها في مقاومة الاحتلال الفرنسي ،وفي اندلاع الثورات الشعبية التي قاومت المستعمر منذ أن وطأت أقدامهم هذه الأرض المقدسة،فقد كان العامل الديني المحرك الأساسي لكل هذه الثورات ،بل كان معظم قادتها من زعماء هذه الطرق،أعدت ونفذت بوحي من هذه الطرق "وإذا جئنا إلى عهد الاحتلال الفرنسي، وجدنا أول من قاد الثورة هي الطريقة القادرية بزعامة محي الدين ثم ابنه الأمير عبد القادر، والذي تعاونت معه الطرق الصوفية ،وعلى رأسها الرحمانية، الشاذلية، وبعد انتهاء مقاومة الأمير،تولى القيادة صوفية آخرون ينتمون إلى طرق مختلفة:قادرية،رحمانية،سنوسية،شيخية فما من ثورة قامت ضد المحتل إلاّ ووراءها يد مرابطية"(القاسمي الحسني،ص.15).

والنصوص التاريخية الموثقة والمسجلة لبطولات ومآثر الطرق الصوفية في الجزائر،التي جاهدت المستعمر وكافحته،كثيرة جدا ومتعددة ،وكل المؤرخين الجزائريين ذكروا في مؤلفاتهم التاريخية هذه المواقف والنضال الجهادي للطرق الصوفية الجزائرية،ك:أبو القاسم سعد الله ،عبد الرحمن الجيلالي،أحمد توفيق المدني،محفوظقداش،بل هناك من خصص مجلدات و أجزاء بأكملها للتأريخ لهذه المقاومات الطرقية ونضالها بالشرح الوافي،ولهذاوجب"إنصاف مؤسسة الزاوية والتنظيم الطرقي بوجه عام باعتباره معقل المقاومة الوطنية ونقطة الانطلاق لكل الانتفاضات الشعبية في طول الجزائر وعرضها من بداية الاحتلال وحتى مطلع القرن الحالي،طوال تلك المدة بقيت الزاوية المؤسسة الوطنية الوحيدة التي أفلتت من السحق والتدجين،وكانتشبه هيئة أركان تقوم بالتعبئة والإمداد ورفع الروح المعنوية"(محمد العربي ولد خليفة،2007ص.234)،والإنصاف الحق للتراث الصوفي و المؤسسة الطرقية هو استغلال هذا التراث الوطني وتوظيفه في أنظمتنا المختلفة وتفعيله ضمن سياق"المواطنة" الحقيقية و"المخالقة" الصحيحة،واستبعاد كل تفسير إيديولوجي سلبي والوقوف على أسبابه ودواعيه ومعالجتها معالجة علمية

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

موضوعية،وفك الصراع بين الطرق الصوفية وبين بعض التيارات والمذاهب الفكرية الأخرى وتقريب الرؤى للتأصيل الواقعي لمرجعيتنا الدينية والفكرية وتحصين الهوية الوطنية والشخصية الجزائرية.

1 -الإيديولوجية والمرجعيةفي الجزائر:

لم يستطع التصوف في الجزائر منذ بداياته الأولى إلى تطوره وتبلوره كمنهج مستقل بذاته،له أصوله وحضوره كفاعل سوسيو سياسي في تاريخنا،وكمؤثر في حقل الممارسة الدينية ،أن ينفك عن تأثيرات الشك الأنطولوجي الذي حاولت ممارسته التيارات الدينية الأخرى والمذاهب الفكرية والفلسفية على تعدد تمثلاتهاوغاياتها،خاصة تلك التي تحاول احتكار "الحدث الديني" وخلق"معايير التدين" وفق مؤشرات تحكمها مؤسسات رسمية وغير رسمية،وهذا ما خلق في أحيان كثيرة علاقات متذبذبة بين الفكر الصوفي وباقي التيارات الأخرى،ومع السلطة السياسية، إيجابا وسلبا،واعتبار المنهج الصوفي منهجا معارضا،وهذا أصل هذه النظرة المعادية للتصوف ف"هذا الاضطهاد تتوفر لنا الشواهد على أنّ أسبابه ليست دينية في جوهرها،بل هي ترجع في الأساس إلى المضمون الإيديولوجي"(حسين مروة،2008، ص.214)،فالصراع بين التصوف وباقي الفرق والمذاهب الإسلامية عموما،كان لأهداف إيديولوجية بحتة ،صراع إثبات الذات في المجتمع،خاصة بعد ظهور الخطاب الإصلاحي التجديدي في العالم الإسلامي وتراجع المد الصوفي ،وتأثر الحركة الإصلاحية في الجزائر كبقية دولنا العربية والإسلامية بهذا التيار وتبلوره في جمعية العلماء المسلمين ،فاتسمت العلاقات بالصراعات والاختلافات والتوترات ،بل وصلت أحيانا حد النزاعات والمناوشات، فكل طرف يسعى جاهدا لتنصيب أفكاره ومنهجه كمرجعية دينية رسمية للجزائريين ،فالإصلاحيون يرون أن التصوف شرك وجهل وبدع وفكر سطحي أسطوري وخرافي يجب إقصاؤه واستبداله،والطرق الصوفية تتهم الإصلاحيين بأنها مذهب" السلفية" ،مذهب مستورد وهابي دخيل على المجتمع الجزائري،يدعو لتحطيم مقدسات الأمة وتراثها الديني وتغيير العقيدة الدينية، وازداد الاختلافات حدة ،على الرغم من أنهم من خريجي مدرسة واحدة هي مؤسسة الزاوية"وفي زوايا القرآن والعلم والتربية والكتاتيب نشأ وترعرع المصلحون والمجاهدون الأولون أمثال الأمير عبد القادر،والشيخ بلحداد،والشيخ بوعمامة،والشيخ عبد الحميد بن باديس، والشيخ البشير الإبراهيمي، والشيخ المولود الحافظي، والشيخ مولود الزريبي،والشيخ الفضيل الورتلاني،فكلهم أبناء الزوايا والكتاتيب"(عبد العزيز شهبي،2007، ص.33)،فبدل الحل التوفيقي وخلق الانسجام ورص الصفوف ، واكتشاف الصيغ المناسبة لتوظيف هذه

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

المكاسب التراثية الماضية، واعتبارها خبرات وأدوات هامة في رصيد الأمة الجزائرية وجزءا من تراثها الوطني الفكري والثقافي،اعتبرت مخلفات شخصية ذاتية،تخص فئة محدودة ومحددة،فتبلور المنهج التفكيكي التجزيئي الإقصائي بوعي ولا وعي،وأضحت" المسألة الإيديولوجية تمثل أخطر إشكالية في كل الأنظمة لأنها بنية فوقية شديدة الحساسية ومعرضة لتقلبات الطقس الاجتماعي والثقافي القريب والبعيد ،وهي لاتقبل الأوضاع الإستاتيكية الخاملة والحلول التوفيقية المؤقتة وأنصاف الإجابات للقضايا الساخنة"(محمد العربي ولد خليفة،2007، ص.128)، خاصة إذا تم هذا التوظيف الإيديولوجي على مستوى تبني منهج محدد على حساب منهج آخر، وممارسة سياسة الإقصاء غير الموضوعي وغير المبرر وإحداث القطيعة والانفصال عن الذات الوطنية ومحاولة أسلمة المجتمع وفق نموذج واحد منمط، قد يتعارض مع النموذج المتأصل فينا، واختزال كل التراث الجزائري في مسألة "الدين" لأسلمة المجتمع والنظام بأكمله،وتحييد قصدي أو غير ذلك لمسألة الوطنية،فهذا الدكتور المرحوم مولود قاسم نايت بلقاسم في إحدى تعقيباته بمناسبة ملتقيات الفكر الإسلامي،ينبه لمسألة مهمة في قوله" وهو أنني أظن أن تجربة الجزائر قد غمطت، قد غمط حقها فعلا، "فالإسلاميون" – كما يسمون أنفسهم- يتكلمون عن كل شيء إلا عن الجزائر"(وزارة الشؤون الدينية،1980، ص.74)، وهذا أكبر خطر للتوظيف الحزبي التعسفي الإيديولوجي، لفكر إقصائي، يختزل هوية الأمة الجزائرية في حدود مقياسية معيارية محددة،ووفق مشاريع وقراءات اختزالية،وبأسماء متعددة ،كالتقدمية والمعاصرة والعقلانية والسلفية والأصالة والحداثة ، تزيد من تسطيح وتزييف رؤيتنا ووعينا لمشروعية مشاريعنا النهضوية وفق نظرة شاملة وكاملة وموحدة،يحتوي الآخر ويتقبله وفق ثوابتنا وهويتنا ك"أمّة جزائرية""فبعد الاستقلال مباشرة انصاع الكل وراء بريق التقدمية تحت ضغط الحرمان الموروث عن العهود البائدة ،كما آلت أمور التربية والتعليم وترسيخ الفكر الإسلامي إلى أناس ممّن يكنّون وراثيا الضغائن للتصوف فشوهوا التاريخ الإسلامي والوطني ورسخوا في عقول الناشئة المتعطشة للعلم والمعرفة،نضال فئة معينة من المجتمع دون سواها"(بودواية بلحيا، 2009، ص.17).

فالتوجه السياسي الإيديولوجي لنظام الحكم بعد الاستقلال أدّى إلى إضعاف الزوايا والطرق الصوفية عموما وظهور النزعة الراديكالية،خاصة بعد تبني النظام الاشتراكي ، والذي مهد بدوره الطريق وشجع على ظهور الإسلام الراديكالي – إن صح القول- تزامنا مع انتشار الإسلام الإصلاحي في العالمين الإسلامي والعربي، والذي أفضى في الجزائر إلى صراع المنهجين الإصلاحي والطرقي ،خصوصا " بعد أن

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

تبنت الدولة الوطنية رسميا الخطاب الإصلاحي،لتفتح المجال واسعا أمام رموزه أو ما تبقى منهم ليفتحوا النار على المرجعية الصوفية ورموزها من خلال سيطرتهم على برامج التعليم ومؤسسات الإعلام"(سعيد جاب الخير،2013، ص.45).

2 -صراع المرجعيات وانعكاساتها على المشاريع التربوية:

في ظل هذه التجاذبات التاريخية و الفكرية والإيديولوجية، تشتت منابع المرجعية الدينية في الجزائر ،باختلاف الزعامات والتصورات وتوالي الفترات الزمانية وتداخل المفاهيم الشعبوية ،ممّا أثّر سلبا في ترسيخ مرجعية الهوية الثقافية في الفكر التربوي خصوصا، لأننا نؤمن أنّ توحيد المرجعية الثقافية والدينية ،تعزز من حضور فعلي وفعال للعملية التربوية داخل المجتمع، فرغم صراحة النصوص التشريعية والدستورية والقانونية ، وحتى على المستوى الثقافي لكافة الطبقات الشعبية ، على أنّ الإسلام دين الدولة ، وهو المرجعية الأولى للهوية الثقافية الوطنية، لكن أي إسلام نريد؟ وبأي فكر تأويلي نقرؤه؟ فمجتمعنا يتصف بالتنوع والاضطراب ، فنجد المتشبث بالثقافة السلفية المحافظة ، والآخر بالثقافات الغربية المستنيرة، وفئة أخرى طرقية صوفية"فثمة عدم وضوح في المرجعية التي يستقر عليها الفكر التربوي العربي المعاصر لهويته الثقافية ،لقد نتج عن اضطراب المرجعية غزو للحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتربوية والثقافية للأمة العربية الإسلامية، ممّا أدى إلى عدم التزام أفراد المجتمعات بالعادات والتقاليد والأعراف والقيم والأخلاق الحميدة، ممّا شكل حالة اغتراب بين الفرد ومجتمعه"(سعيد محمد الرقب،2007، ص.197)،فتغييب المرجعيات المؤسسة للتاريخ الوطني وإقصاء تلك الروافد الأساسية لبناء المرجعية الوطنية بقصد أو غير قصد، بوعي أو دون وعي،أدّى إلى حالة الاغتراب على جميع الأصعدة الدينية والثقافية وحتى على مستوى القيم،ووصل إلى مستوى الانسداد الحقيقي والخطير بين التاريخ والهوية الوطنية وبين مرجعيته المؤسّسة له، فأدّى إلى حدوث الانحرافات الاجتماعية والغزو الثقافي وغياب" النموذج" في علمائنا ، بل وصل حد التطرف بكل أنواعه وأشكاله ، نتيجة منطقية لتنميط هذه المرجعية ومحاولة خصخصتها في مجال ضيق،وفي اتجاه واحد ،وقراءتها قراءات نقدية تأويلية تخدم إيديولوجيات محددة، دون الاستجابة للحاجات الروحية والتاريخية ولأبعادها المختلفة ف"بينما ظلت الأجيال الجديدة تجهل تماما التراث الصوفي الإسلامي الضخم، الذي يمثل أكبر روافد الثقافة الوطنية في بعديها الديني والشعبي على السواء، ومن الطبيعي أن الأجيال الجديدة ،وسط هذا الفراغ المرجعي،ذهبت تستورد الفكر الديني

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

والفتاوي الشرعية من مصر والسعودية وإيران وباكستان"(سعيد جاب الخير،2013، ص.69)،فسياسة الإقصاء والتجاهل، أدّت إلى الغياب الكلي للمرجعية الدينية في الجزائر، وما سنوات الجمر التي عشناها إلّا أكبر دليل على ذلك، فتثبيت أركان الهوية الوطنية،وتأصيل المرجعية الدينية، لا يكون بانتحال شخصية الآخر،ولاباستيراد فتاويه الدينية، فالانصهار والذوبان في الآخر ، هو الابتعاد عن الأنا و الهو،وخلق هوية زائفة ،تحطّم عرى المجتمع،وتؤسس للانفصال والتنابذ ،وتلغي التاريخ والحضارة ،كما تقضي على الإبداع والحرية"يجب أن نخرج من هذه الهوية، ولا أجد ما يضيئنا في هذا الخروج أعمق من التجربة الصوفية.. هي كمثل الحب تخلق باستمرار"(أدونيس،ص.166).

فتواطؤ المؤسسة السياسية مع المؤسسة الفقهية وإخضاع المعرفة الشرعية والنصوص الدينية وشبه الدينية للإيديولوجيا الرسمية ،مجازفة كبرى ،إذ لا يمكن أن نفصل بين التصوف وتاريخ الإنسانية ولا عن تاريخ الجزائر، وبالتالي لا يمكن أن نحيد به عن مرجعيتنا الدينية والثقافية، فالتصوف ليس تأملا نرجسيا ذاتيا معطلا ، بقدر ماهو تحصين للخطاب المعتدل المتسامح ، كما لايسعى المتصوف الحق الاتّجار به أو توظيفه سياسيا أو حزبيا أو إيديولوجيا، وما جذور الاختلاف الحاصل بين الإصلاحيين وأصحاب الطرق، إلّا حول أصالة وتمثيل المرجعية الدينية في الجزائر وربطها بهويتنا الوطنية و تاريخنا المذهبي والفكري، وعدم قابليتها للتحوير والتبديل على أسس اعتقادية و لا مذهبية واحتكارية لأهل السنة والجماعة ومحاولة إبعاد كل توجه غير هذا التوجه، ففي جريدة" المرشد"،العدد الأول الصادر في غرة شوال 1365هـ، الموافق لأوت 1946،وتحت عنوان"مشيخة الإسلام بالجزائر"اجتمع عدد معتبر من مشايخ الطرق وممثلة عن عصبة (المصلحين)وتفاوضوا في إحياء وظيفة (شيخ الإسلام) بالجزائر،مثل ما لشقيقيه:المغرب،وتونس وهو أمر جدير بالاهتمام به خصوصا من مشايخ (الطرق) لأنّهم الهيئة الممثلة للصبغة الدينية،وأمّا المصلحون فقد ظهر عليهم عند الاجتماع الشره،في احتكار الوظيف لأنفسهم،وهو عمل غير ملائم لرغائب الأمّة،لأنّ أغلبها مالكية"(يحي برقة:1983، ص127)،وفي العدد 43 من سنة 1370هـ /1950 م ، يواصل الحاج عدة بن تونس تبيين أصل الخلاف مع جمعية العلماء المسلمين ، أو الإصلاحيين حول المسألة نفسها ، عند حديثه عن الاجتماع الذي حضره رفقة غيره من علماء الجزائر،بغية تكوين جمعية علماء الجزائر"ثم تبيّن للجميع في تلك العشية نفسها،أنّ الجمعية(جمعية المصلحين) لا(جمعية علماء الجزائر)التي كنّا نرجو من ورائها إصلاح ذات البين، من

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

بين(الطرقيين)و(الإصلاحيين)وكلما جاء يوم على(الجمعية) إلّا وألبسها حلة جديدة،من الإصلاح حتى أصبحت (جمعية وهابية)مائة في المائة،لا تمت بصلة لأي مسلم من(مسلمي الجزائر)إلّا من نهج نهجها وعمل بمقتضاها"(يحي برقة،1950، ص167).

يجب علينا أن نتمثل فعليا مرجعيتنا الدينية عند بناء المشاريع التربوية والمناهج الدراسية، ونجسدها تجسيدا يتناغم ومخططاتنا التربوية السنوية ، وفي تحقيق مدخلات ومخرجات العملية التعليمية التعلمية،وفي هيكلة الكفاءات المرحلية والشاملة والختامية،وأثناء ضبط غايات وأهداف كل المراحل والأطوار التعلمية، وأن تبنى القيم الإنسانية تبعا لقيمنا ،لا أن تكون قيمنا تابعة،ذائبة في طيات الانفتاح على "المواطنة العالمية"، لأن هذا الانصياع غير المسؤول لهذا الانفتاح سيجرنا حتما لطور أخطر من أطوار الخروج عن "الهو" إلى "اللاهو" وبلوغ " الاختراق الثقافي" في أسمى مستوياته وتمثلاته، وينقلنا من "الانغلاق الأيديولوجي" إلى" الاستغراق البيداغوجي"فإذا كان" الصراع الإيديولوجي صراع حول تأويل الحاضر وتفسير الماضي والتشريع للمستقبل،فإنّ "الاختراق الثقافي" يستهدف الأداة التي تتم بها ذلك التأويل والتفسير والتشريع"(محمد عابد الجابري،1999، ص.191)، فيظهر أنّنا قمنا فعلا بتجسيد كل الأطوار، المؤدية للاستغراق البيداغوجي،بعد أن اخترقنا ثقافيا ولم نستطع احتواء صراعاتنا الإيديولوجية،وبالتالي لم نفهم ماضينا ولا قرأنا حاضرنا ولا نحن استشرفنا لمستقبلنا،ولا صغنا الأداة الرئيسة والصحيحة لكينونتنا كمجتمع جزائري له خصوصياته سلبية كانت أم إيجابية ،المهم هي جزائرية وفقط،ولا أرى أداة أصلح للملمة هذا الصراع والاختراق والاستغراق، من المنظومة التربوية ومناهجها التعليمية،فهل تمكنت هذه الإصلاحات الجديدة بمخابرها البحثية من إنتاج مناهج حيّة،تصل بين المعاصرة الزمنية و الإبستمولوجية،لتحمل هموم المجتمع الجزائري وتستشرف لمستقبل أبنائنا في ظل هذه الإيديولوجيات العاصفة والاختراقات الثقافية والعولمة الاقتصادية والسياسية والمعرفية،وسؤالنا الأهم هو هل مازال التصوف والطرق الصوفية حاضرين في فضائنا الفكري والتربوي؟ وهل يساهم هذا المنهاج الجديد فعلا في التأصيل لمرجعيتنا الدينية وهويتنا الثقافية ؟ وإن كان هذا التراث حاضرا فعلا في مشهد الإصلاح التربوي فأين يكمن هذا الوجود ؟

لقد حاولت منظومتنا التربوية مسايرة التوجهات الجديدة والمستجدات العالمية والنظريات التربوية ،الفلسفية والنفسية،فتبنت مقاربات تربوية عديدة مند استقلال بلادنا،فالتدريس بالمضامين،إلى المقاربة بالأهداف،ثم انتقلت للمقاربة بالكفاءات،وصولا للكفاءات البنائية الاجتماعية الآن،وكانت في ظل كل هذه التغييرات

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

والتعديلات تسعى دوما لتبيئتها وواقعنا وقيمنا وثقافتنا،لكنّ طبيعة هذا التعليم كان أحيانا" يدل على واقع غير الواقع العربي الراهن،إنّما على واقع معتم غير محدد"(محمد عابد الجابري،1990، ص.65)،فالتفتح على الغير والتفاعل معه تربويا مهم جدا،في ظل "الانفتاح الكوني" و"التسارع المعرفي والتكنولوجي" ،لكن مع وجوب مراعاة شروط استنباته وإسقاطه في واقعنا وتوفير الشروط اللازمة لذلك،لإنجاحه وتفعيله،ف"برامجنا التربوية حتى اللحظة تتغافل عن هذا، ونظام التعليم لا يؤثر في تغيير الذهنيات، بل لايزال نظاما يخدم ثقافة الصمت"(عبد المعطي سويد،2006، ص.111)،لأننا فقدنا في مناهجنا مفهوم"المعاصرة الحقيقية"،فتبني هذه المشاريع التربوية واستيراد مناهجها،وتزكيتها وتوظيفها زمنيا و إبستمولوجيا،لا يعني توافقها مع مجتمعنا ونجاحها،إلّا إذا راعت همومنا ومشاكلنا وظروفنا و غاياتنا،بل وخصوصياتنا الثقافية والدينية،خاصة وأنّ الإشكالية التربوية المطروحة الآن ،هي ليست نقل المعارف، والتي لم تصبح الأولوية الأولى للمناهج،بقدر نوع التربية التي نريدها قيميا،فالقيم التي نسعى لاختارها وإرسائها وتثبيتها هي غايتنا الكبرى" إنّ مهمة كل تربية هي إيصال ونقل القيم التي اختارها المجتمع لنفسه"(اللجنة الوطنية للمناهج،2016، ص.15)، لكن المشرع التربوي الجزائري، لم يحدد هذه القيم التي اتفق الشعب عليها واختارها لنفسه،فهي غير موضحة، وهذا مازاد الأمر إبهاما وإيهاما وتعقيدا ،بين التماهي والتعميم في ضبط هذه القيم وآليات انتقائها وأشكال تقديمها،لأنّ الأطر والنخب الفكرية التي توكل إليها بناء هذه المناهج وصياغتها وبلورتها ،ووضع المخططات والمصادقة عليها ،تتجاذبها تيارات فكرية متفاوتة المشاريع ومختلفة الأهداف والغايات ،ومتشعبة الإيديولوجيات،رغم محاولة النصوص المهيكلة توحيد الرؤى من خلال ربطها بالإسلام والعروبة والأمازيغية، ووصلها بالطابع الوطني الديمقراطي،فهذه الملامح عامة،تسمح بالتأويلات والخطابات التربوية المسيّسة،وتشجع على الانتقائية والعشوائية،وتساعد على " شيوع المدخل العدمي أو ما نسميه "نظرية الفراغ،أي أنّ ما سبق لا شيء، أو أسوأ شيء.. وسيطرة المدرسة الفرنسية على أغلب ما ظهر منها وتوجيهه نحو التجزئة والتقطيع وتأويله وفق مفاهيم الأيروسانترية التي تلقن الجميع في العالم التابع ما هو علمي وصحيح، أي ما يرضيها،وما هو شاذ وخطأ أي ما يخالف مقولاتها المعيارية"(محمد العربي ولد خليفة،2007، ص.275)،وهذا ما يؤثر سلبا على محورة وتجسيد هذه القيم واقعيا، بسبب أشكال الضغط والقهر،التي تفرضها توجهات و إيديولوجيات معينة،فينتج عنها الإقصاء الذرائعيللتراث،أو التغييب القهري له، ومحاولة تهميشه أو تسطيحه وتزييفه،بشكل أو أخر، رغم رفض

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

النصوص القانونية التربوية التنظيرية لمثل هاته الممارسات"يجب أن تكون المدرسة، في منأى عن كل تأثير أو تلاعب ذي طابع إيديولوجي أو سياسي أو حزبي"(القانون التوجيهي للتربية،2016، ص.11)،والأولى بهذا مخاطبة، صانع الخطاب أصلا،و باني المناهج، التي تقوم المدرسة بتنفيذها وتفعيلها وتدريسها.

ومن أهم نماذج تجليات هذا الصراع الإيديولوجي في مناهجنا التربوية هو الغياب الشبه التام للتراث الصوفي بكل تجلياته عن المشهد التربوي الجزائري من حيث النصوص والشخصيات الصوفية ،ففي مرحلة التعليم الابتدائي ومن خلال استقراء 14 كتابا مدرسيا لا نجد نصا واحدا مرتبطا بالتراث الصوفي.

أما في التعليم المتوسط فورد نص واحد للأمير عبد القادر، وقد ورد في الصفحة 146 من كتاب اللغة العربية للسنة الأولى متوسط ،ورد في سياق أدبي، والنص مكون من ثماني أبيات شعرية يتغنى فيها الأمير بجمال البادية (كتابي للغة العربية،2017.ص146)، بينما تغيب الإشارة إلىأهم مؤلف صوفي جزائري له وهو كتابه "المواقف"،في التعريف بشخصية الأمير وإنتاجاته وإسهاماته الأدبية والفكرية، وفي المقابل نجد 28 نصا كاملا للتراث الإصلاحي،نثرا وشعرا، موزعة على هذا الطور التعليمي .

في التعليم الثانوي وفي كتاب الفلسفة للسنة الثالثة ثانوي شعبة علوم تجريبية نقف على نص شعري لابن عربي، مكون من تسع أبيات يصف فيها علاقة الخالق بالمخلوق(اللغة العربية وأدابها ،2017.ص24)، وقد برمج في محطة من محطات الإدماج وليس كنص للدراسة والنقد والتحليل، مع الإشارة أنه لم يتمّ إعطاء تعريف لصاحبه ابن عربي، رغم عدم تكرار الشخصية إلا مرة واحدة في الكتاب، ونقف مرة ثانية مع سند اخر في كتاب إشكاليات فلسفية للسنة نفسها ، يتحدث فيه صاحبه عن المعرفة الصوفية ويربطها ربطا مباشرا بالاتحاد والحلولية ووحدة الوجود" ولقد أخذ الصوفية المتفلسفة يستهدفون انطلاقا من القرن الثالث للهجرة الاتحاد بالله عن طريق الفناء كماهو عند أبي يزيد البسطامي (ت261) أو عن طريق حلول الله في مخلوقاته فيما ذهب إليه الحلاج(ت309).(إشكاليات فلسفية،2018.ص367)وتعتبر هذه الأحكام المطلقة ودون تبرير واستشهاد، ممارسة انتقائية وإيديولوجية ، تستهدف إبراز نوع واحد من التصوف الفلسفي العلمي النخبوي، وتحييد التصوف الزهدي السني المعتدل،والغريب في الأمرأنّ الكتاب نفسه يقترح ثلاثين نصا فلسفيا للتحليل ،لفلاسفة ومفكرين عرب ومسلمين، وحتى غربيين،من أمثال :الشهرستاني، الفخر الرازي،ابنخلدون،عبد الرحمن بدوي،زكي نجيب محمود،أفلاطون،باشلار،وليام جيمس،دوركايم،ديكارت،سبينوزا،فولتير...

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

ولا نجد نصا واحدا مقترحا للمتصوفة المسلمين أو الجزائريين.

والأمر نفسه في مجال الكتب المدرسية لنشاط التاريخ، ففي مجال الصحافة والإعلام ،تم تغييب دور الصحف والمجلات الصوفية في هذا المجال، فعند الحديث عن أهم الصحف والجرائد التي ساهمت في الحركة الإصلاحية في الجزائر ،تمّ ذكر كل صحف جمعية العلماء المسلمين،مثل :المنتقد،الشهاب،السنة النبوية،الشريعة،البصائر، وتغافل عن ذكر صحف الطرق الصوفية،عدا صحيفة النجاح،التي ذكرت لكن دون ذكر الجهة التي كانت تصدرها أو توجهها ، بل ذكرت مع جرائد حركة الإصلاح عرضا(كتاب التاريخ للسنة الثانية ثانوي، 2018.ص128)، على الرغم من أنّها أول صحيفة جزائرية صدرت سنة 1919م ،ولم يتم ذكر بقية الصحف مثل: لسان الدين، الإخلاص، المعيار، الفضيلة،الرشاد،الوفاق، وكلها صدرت في الفترة الممتدة مابين 1919-1938.

4. **خاتمة:**

فإقصاء التربية الصوفية بجميع أشكالها ونماذجها الوظيفية،وتقديمه في أفضل حالاته بشكل يوحي بانفصاله عن الذات التاريخية للجزائر والهوية الوطنية وعن أحقيّة أصالته في المرجعية الدينية للجزائر ، هزيل وفقير ومبتور عن جذوره التاريخية وكأنه نتاج حضارة أخرى غير الحضارة الجزائرية الأصيلة.

وتغييبه في تشكّل المنظومة التربوية ومناهجها الدراسية ،لأسباب سياسوية وإيديولوجيا كرّستها كل السياسات المتعاقبة ، بقصد أو غير قصد ،أثّر سلبا في ترسيخ ثقافة القيم الأخلاقية في مجتمعاتنا وتبلورها سلوكيا في ثقافة الإقصاء والعنف بجميع أشكاله، وتماهي التأصيل المرجعي الديني كمؤسسات فاعلة ومقنعة ودالة في حياة الأمة والمجتمع ، واللجوء لاستيراد مرجعيات تختلف تماما وتوجهاتنا العقدية والمذهبية الفقهية وعاداتنا وأعرافنا.

فأعتقد جازما أنّ أيّ إصلاحات للمناهج المدرسية التربوية الجزائرية،يجب أن تفكّر وتركّز على هذا الموروث الصوفي الغائب ، وعلى الأدوات اللازمة التي تمكّن من دمج وتفعيل هذا التراث الصوفي في جميع مراحله وأطواره التعليمية ، كجزء أساسي من التربية الوطنية ، بوصفه حقيقة تاريخية إبستمية وأخلاقية ودينية،له أبعاده ومظاهره ، ووظائفه، وأيّ إقصاء أو تنقيص سيخل بالتوازن القيمي الأخلاقي في مجتمعنا، ويسمح بالانفلات الأخلاقي والعنف، والتطرف الفكري، وتفسخ الهوية وانغلاقها، وفقدان المرجعية الدينية الأصيلة.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

التوصيات:

– إدراج نصوص من التراث الصوفي الجزائري خاصّة، نثرية أو شعرية،في مختلف الأنشطة التعليمية، خاصّة نشاطي التاريخ واللغة العربية، في الطورين المتوسط والثانوي، والفلسفة في الطور الثانوي، وتعزيزها في الطور الابتدائي بالسندات والصور لمعالم وشخصيات صوفية جزائرية.

– إشراك الفاعلين ، من ناشطين وباحثين ومتخصصين في التراث الصوفي، في وضع المناهج والبرامج والمخططات الدراسية، وتفعيلها، وتضمينها بعض النماذج الجزائرية في المقررات ، مع ما يتماشى والمستوى المعرفي واللغوي والنّمائي لمتعلمي كل مرحلة.

– إضافة مقياس أو ميدان التربية الصوفية أو "نماذج صوفية وطنية" في الطور الثانوي، يخصص لمنهج التربية الصوفية ومقاماته وأحواله، وأهم نماذجه المرجعية في الجزائر، مثل: أبو مدين الغوث ،عبد الرحمن الثعالبي، عبد الكريم المغيلي،بلعالمباي،أحمد التيجاني.....

– تنويع المصادر والمراجع التاريخية الموثقة للتصوف، وفحصها وتنقيتها وتحريرها من الاستقطاب الاستشراقي، فجلّ – إن لم نقل كل– المنقولات،على قلّتها، التي تؤرخ للتراث الصوفي وبعض شخصياته ،عالميا أو جزائريا مستوحاة من كتابات المستشرقين فقط.

– الاهتمام بالنظرة البيموادية ، الأفقية والعمودية، بين جميع الأنشطة وتكاملها، خاصة نشاط التاريخ الجزائري ، والابتعاد عن النظرة الموجهة والمرتبطة والمركزة أساسا على التسلسل الكرونولوجي ،الزمني والتاريخي فقط ،بل وجوب تفعيل وإحداث النظرة الفكرية ، الفاعلة تاريخيا والمؤثرة زمنيا، فالفكر يخلق الزمن وليس العكس التاريخ من أجل التاريخ.

قائمة المراجع:

1 –أحمد توفيق المدني. *تاريخ الجزائر*. بيروت: الدار العربية.

2 –أحمد حماني. (1984). *صراع بين السنة والبدعة*. قسنطينة: دار البعث.

3 –أدونيس. *الصوفية والسريالية*. دار الساقي.

4 –اللجنة الوطنية للمناهج. (2016). *الدليل المنهجي لإعداد المناهج*. الجزائر: الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية.

5 –اللجنة الوطنية للمناهج. (2016). *القانون التوجيهي للتربية*. الجزائر: الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية.

6 –أنّا ماري شيمل. (2004). *الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف*. بغداد: منشورات الجمل.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

7 -بودواية بلحيا. (2009). *التصوف في بلاد المغرب العربي*. وهران: دار القدس العربي.

8 -بوعتو بشير. (2013). *التصوف في الجزائر*. الجزائر: دار السبيل.

9 -تشارل هنري تشرشل. (1974). *حياة الأمير عبد القادر*. تونس: الدار التونسية.

10 جوزيبي سكاتولين. (2013). *تأملات في التصوف والحوار الديني*. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

11 حسين مروة. (2008). *النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية*. بيروت: دار الفارابي.

12 رأس مال عبد العزيز. (2011). *الزوايا والأصالة الجزائرية بين التاريخ والواقع*. الأبيار: منشورات تالة.

13 سعد الله ابو القاسم. (1998). *تاريخ الجزائر الثقافي*. بيروت : دار الغرب الإسلامي.

14 سعيد جاب الخير. (2013). *أبحاث في التصوف والطرق الصوفية*. الجزائر: دار الفيروز للإنتاج الفني.

15 سعيد عبد العظيم. (2007). *الصوفية الوجه الاخر*. الاسكندرية: دار الإيمان.

16 سعيد محمد الرقب. (2007). *الهوية الثقافية في الفكر التربوي العربي المعاصر وتحديات المستقبل*. عمان: دار يافا العلمية للنشر.

17 سيد حسين نصر. (1975). *الصوفية بين الامس واليوم*. بيروت: الدار المتحدة للنشر.

18 صلاح مؤيد العقبي. (2009). *الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها*. الجزائر: دار البصائر.

19 عبد الرحمن الجيلالي. (1995). *تاريخ الجزائر العام*. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

20 عبد العزيز الشهبي. (2007). *الزوايا والصوفية والعزابة والاحتلال الفرنسي في الجزائر*. وهران: دار الغرب للنشر والتوزيع.

21 عبد المعطي سويد. (2006). *هياكل التنوير والحداثة المبتورة في الوطن العربي*. القاهرة: مؤسسة الانتشار العالمي.

22 عبد المنعم القاسمي الحسيني. (2007). *أعلام التصوف في الجزائر منذ البدايات إلى غاية الحرب العالمية الأولى*. الجزائر: دار الخليل القاسمي.

23 محمد ابو القاسم حاج محمد. (2004). *جدلية الغيب والإنسان والطبيعة العالمية الإسلامية الثانية*. بيروت: دار الهادي.

24 محمد العربي ولد خليفة. (2007). *الجزائر المفكرة والتاريخية أبعاد ومعالم*. الجزائر: دار الامة للطباعة والنشر.

25 محمد عابد الجابري. (1990). *إشكاليات الفكر العربي المعاصر*. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

26 محمد عابد الجابري. (1999). *المسألة الثقافية في الوطن العربي*. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

27 وزارة التربية الوطنية،(2018)،إشكاليات فلسفية،الجزائر،الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية.

28 وزارة التربية الوطنية،(2018)،اللغة العربية وادابها للسنة الثالثة ثانوي،الجزائر،الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية.